

نشوء اللغات الاسلامية<sup>(١)</sup>

ففي عِلَى اللغات في كل عصر ومصر ان تنبسط بعضها من بعض ما يجوزنا من الالفاظ لتعبر بها عن الافكار الحديثة والعربية والفارسية والتركية لم تخلص من هذا القانون . فاقبست اولاً من اللغات السامية ومن اليونانية ثم من اعم لغات اوربا الحديثة ولا سيما من الفرنسية كما اقتبست كمية وافرة من الالفاظ للانصاح عن الافكار التي ليس في مجملها ما يدل عليها ثم هجمت تلك الالفاظ الانجيمية هجومًا كثيرًا كادت تأتني معه عِلَى مفردات تلك اللغات نفسها فقامت تريد الرجوع الى اصولها وهب التوم يبدون من اللغات الاسلامية الثلاث تعابير رأوها وحشية ويستعضون عن الالفاظ يشتقونها من المادة الاصلية في العربية والفارسية والتركية او بالفاظ كانت موجودة ولكنها اطلقت عِلَى معاني جديدة

ومن الضروري ان لا يفوتنا النظر بان اصحاب هذه اللغات اليوم يريدون الرجوع بلغاتهم الى اصولها الصحيحة ويطرحون الالفاظ التي ليست لهم مدفوعين الى ذلك بتأثيرات الدعوة الى الوطنية في البلاد الاسلامية . وهذه الحركة في الرجوع بهذه اللغات الى اصولها لا ترمي الى نبذ الالفاظ الافرنجية فقط بل ان القوم في فارس يطحنون الى حذف التعابير العربية وفي البلاد العثمانية كما هو في سائر البلاد التركية يحاولون طرح الالفاظ العربية والفارسية . ويبحث الادباء من اهل هاتين اللغتين فيما لديهم من الالفاظ الايرانية والفارسية عن الالفاظ التي كان من تأثيرات الفاتحين او من رغبة المغلوبين في اظهار معرفتهم بلغة غالبهم ان زهد فيها واستعملت الفاظ اقل منها انطباقاً مع الروح التركية والفارسية . وان كثر استعمالها وعدت او كادت من مادة اللغة الاصلية .

جرت اللغات الاسلامية كاللغات الاجنبية في اقتباسها الالفاظ عِلَى طريقتين علمية وعامة فالعامة يقتبسون عِلَى ايسر وجه من الالفاظ ما يكرر على مسامعهم دائماً او ما يفصح عن افكار لا مائل لها في لغتهم الاصلية ولقد عرفت منذ القديم الفاتحين التي تجري عليها في الاقتباس فالاسماء تنتقل من لغة الى اخرى باعظم ما يكون من السرعة

١ المسيو لوسين بوفوا احد علماء المشرقيات نشرها في مجلة العالم الاسلامي

واقل من ذلك انتقال الصفات وفي النادر اقتباس الظروف وبشدة أو لا يكاد يكون اثر لاقتباس الافعال . ومن اللغات ما اذا نظر فيه الى المفردات يمكن وصفه باللغات المختلطة وهي تتألف في البلاد التي عرفت بتجارة المقايضة ولا سيما في الموانئ البحرية مثل لغة البجيين في الشرق الأقصى وهي مزيج من اللغة الانكليزية والصينية ولغة السابير مؤلفة من العربية والفرنسية والاسبانية والاطالية او اللغة الافرنجية وهي مجموعة من كلمات مقتبسة من جميع لهجات البحر المتوسط من البلاد التي تمتد من سورية الى مراكش ولا بأس باعتبار اللغة المالطية من هذا الضرب من اللغات وان اصبح لها صحافة وآداب منذ عهد ليس بعيد ولكنها لم تعد تحب لهجة عربية تكون صلة بين لغة مصر والمغرب جامعة الى نحوها الذي هو كغير اللغات السامية مفردات ايطالية وبعبارة اصح صقلية في الاكثر وكتابتها لاتينية<sup>(١)</sup>

وما عدا هذه اللغات المشتركة البحرية التجارية خصوصاً فقد تألفت في البلاد الاسلامية التي استولى عليها الاوربيون لهجة عامية دخلتها الفاظ من لغات الفاتحين واصطلاحات ودواوين الحكومة وارباب الصناعات وهكذا نجد قرارات الحكومة الفرنسية في الجزائر كانت تكتب زمناً بلهجة محرفة ممزوجة بكلمات فرنسية نقلها المترجمون بجمل منهم او كسل فيهم على حالها ولم يعتوا بترجمتها وترى جند الرماة والمشاة هناك يستعملون لغة هي اخرى بها ان تكون مما تواطأوا عليه باسم وهي خليط من التعابير الفرنسية المحرفة كثيراً بحيث يصعب الاهتداء الى معرفتها غالباً

ولكن هذا لا يصح على الإطلاق . الا على اللغة المحكية وكتابات من لم يتعلموا . اما اللغة الادبية التي مست حاجتها كذلك الى ايجاد تعابير جديدة فقد عمدت الى طرق

١ . توجد امثلة اخرى للغات اسلامية يتكلم بها اناس من غير المسلمين مثل اللغة الاسرائيلية الفارسية وهي لغة فارسية ممزوجة قليلاً بالفاظ عبرانية ومكتوبة بحروف عبرية وهي لهجة يهود فارس . ويستعمل اليهود القراءون في القديم هذه الحروف ايضاً في الكتابة التركية وهي اللغة الدارجة بينهم . وفي البلاد العثمانية اناس من الارمن والروم يتكلمون بالتركية ولكنهم يكتبونها بحروفهم القديمة ولهم ادبيات ارمنية تركية وادبيات يونانية تركية ذات صحافة خاصة بها . وهناك اللغة الكرشنوية وهي تطبيق المسيحيين للحروف السريانية على اللغة العربية والعبرانية العربية او العربية التي يكتبها اليهود بالحروف العبرانية .

عديدة في الاقتباس فبدأت بنقل الفاظ أوربية كما هي أو بتعديلها قليلاً حتى توافق التلفظ المحلي وهذه هي الطريقة التي كانت تعمد إليها اللغة العامية ومضى زمن كانت هي المعول عليها أما فكر الرجوع بتلك اللغات إلى أصولها فلم يأت إلا في السنين الأخيرة فاللغة العربية الغنية بمفرداتها ولها من الاشتقاق موارد كثيرة فقد تمسكوا إلى ما سبغ منها من المفردات فاشتقت منها وكذلك كان من الفارسية التي كانت لا تستعمل بعض الأحيان عن اللفاظ العربية . أما التركية التي انتشرت في اللغات الأجنبية فيها فقد أخذت باديء بدء من العربية والفارسية وهي تحاول منذ مدة الاكتفاء بما عدها باستعمال التعابير القدرية القديمة التي كادت تنلأ .

ما هي الموترات التي عرضت للغات الإسلامية من اللغات الأجنبية ؟ إن أقدم النصوص العربية التي انتهت إلينا هي الأشعار التي قيات قبل الإسلام والقرآن نفسه لا يخلو من بعض الفاظ أصلها فارسي . وذلك لأن الصلات بين الفرس والعرب كانت قديمة مستحكمة فاخذت العربية عن اللغة المحاورة لها بعض اللفاظ . فمن الفاظ القرآن الغير العربية في العربية ابريق وسجبل . واقتبس اللغة الآرامية اللغة العربية بعض الفاظها أيضاً فإن اتحاد أصول هاتين اللغتين والمناسبة القوية في تركيبهما قد جعلت الأخذ منها سهلاً للغاية . وكذلك الحال في اللغة العبرانية فقد اقتبس العربية بعض اللفاظ وأكثرها ديفي فيها « جهنم » و « ملك » واقتبس اللغة الرومية منذ عهد بعيد بعض اللفاظ للغتين العربية والفارسية مثل سجل وسندس وانتقلت هذه إلى العربية ووردت في القرآن عن طريق الفارسية

ولقد نشأت في فارس لغة صناعية واعني بها البهلوية واستعملت الحسط السامي واستعاضت عن المفردات الإيرانية بما يقوم مقامها من المفردات الآرامية وتصریفها يجمع بين تصریف اللغتين ولكن اللهجة الشائعة من هذه اللغة بقيت غير متأثرة كثيراً بالنفوذ الغريب إلى زمن الفتح العربي . ولا حاجة إلى ذكر ما صاحب اللغة الإيرانية من التبدل بالفتح فقد سرت إلى لغة الجمهور الفاظ كثيرة دينية وعلمية . واعتمدت فارس في كتابتها على الخط العربي .

أما الأتراك فالظاهر أنهم لم يقتبسوا الفاظاً كثيرة من جيرانهم قبل أن يدينوا بالإسلام هذا إذا استثنينا منهم المغول . وربما أخذوا قديماً بعض اللفاظ من الصين وفارس حتى إذا انفصلوا للإسلام كثرت في لغتهم الكلمات العربية والفارسية . وترى العربية إلى عهد

ظهور الاسلام تمتد من الفارسية والسامية والآرامية خصوصاً واليونانية ودام هذا الاقتباس وارتقى ارتقاء ظاهراً على عهد خلفاء الأمويين والعباسيين . وظلت اللغات الفارسية والسريانية والرومية بحسب الاقطار لغات الادارة في المملكة العربية ولا عجب من ثم ان ادخلت الى لغات الفاتحين عدداً كبيراً من الالفاظ العلمية . وكان من درس فلاسفة يونان ورياضيهم وكيميائهم وطبيعيهم ان سرت الى العربية من اليونانية اصطلاحات علمية

وفي الحروب الصليبية دخلت الى اللغة العربية الفاظ مختلفة اقتبسها من لغات الشعوب التي اختلط بهم المسلمون ولكن ما اخذته هو من الافاصيص محدود محدود ولم تدخل على اللغة العربية الالفاظ الغربية الا في القرون السدس عشرة الموافقة لارتقاء العثمانيين في آسيا وأوروبا . اما تأثير اللغات الاوربية في العربية فلم يكديشعر به الى الدور الاخير وهو اقل من ذلك في الفارسية بالنظر لبعدها الجغرافي .

ومن اراد الآن ان يبحث في تأثير كل لغة اوروبية في اللغات الاسلامية منذ زمن النهضة فليقرر ما يأتي : ان اثر اللغة الافرنسية كبير جداً وقد ناق غيره في جميع العالم الاسلامي في البحر المتوسط وآسيا السالفة ولكن اثرها بالنسبة لغيره حديث العهد وكانت البواعث اليها <sup>١</sup> الاصلاحات التي جرت في البلاد العثمانية على عهد السلطان محمود <sup>٢</sup> تنظيم محمد علي لمصر على نموذج العهد ايضا وما تركه الفرنسيين من الفناهم فيها بعد حملتهم على مصر سنة ١٧٩٩ <sup>٣</sup> فتح الجزائر <sup>٤</sup> الصلات التي نشأت بين فرنسا وفارس وقد بدت بها في اوائل القرن التاسع عشر على ايدي بعثة جوبر والنابند غاردان ثم اعيدت بعيد سنين <sup>٥</sup> شدة ميل المسلمين في البلاد العثمانية ولا سيما في فارس لتعلم الآداب الفرنسية والانطباع بالافكار الفرنسية

وانت ترى بهذا ان نفوذ فرنسا في الشرق غير بعيد العهد لا يتجاوز القرن الواحد وهو قوي للغاية على الرغم من تقلص ظل سياستها من البلاد العثمانية مدة من الزمن وعلى تدخل انكلترا في مصر وقلة علاقتها مع فارس نتأيد نفوذنا ابدأ في تلك البلاد التي لم يبق فيها اولئك الشعوب الذين هم أكثر منامضاء في الامور السياسية والاقتصادية شيئاً من لغاتهم الا القليل الذي لا يوبى له ولا ننسى ان تأثير اللغة الفرنسية قد استحكم في اللغات التركية في روسيا ولكن لا مباشرة بل دخلتها الفاظ من الافرنسية بواسطة اللغة الروسية او اللغة التركية العثمانية

اما تأثير اللغة الانكليزية فضعيف وهو مقصور على الصحافة العربية في مصر والصحافة الفارسية في الهند ( بقطع النظر عن اللغة الهندستانية وسائر لغات الهند الوطنية ) التي تعتمد كل حين الى استعمال كمية من الالفاظ الفرنسية وليس للانكليزية في فارس غير اثر ضئيل جداً ولا اثر لها في التركية الا ما كان من بعض التعابير العلمية والبحرية واكثرها في السباق وانواع الارباض .

وبعد ذلك فان تأثير اللغة الايطالية قديم ثابت باق فهو يرد الى الزمن الذي كانت فيه البندقية دولة بحرية قوية في البحر المتوسط وما زالت اللغة التركية العثمانية منذ ذلك العهد تأخذ عن اللغة الايطالية جملة من الالفاظ لا العلمي منها فقط ( مثل الفاظ الملاحة والتجارة والصناعة وغيرها ) بل الفاظاً شائعة في الاستعمال وكان لغة العثمانية ان تكسني بما عندها من مقابل لها مثل لفظة « قامليا » التي تعجلى فيها اللهجة البندقية كل التجلي وكذلك كان من اللغة الصقلية ان شغلت مكاناً معها على نحو ما رأيناها آنفاً في ان جزءاً من المفردات المالطية مأخوذ منها . ودخل على اللغة في تونس كثير من الالفاظ الايطالية وقد لاحظ احمد العارفين ان هذه الالفاظ لا تستعمل الا في الكلام الخارج اما اللغة المكتوبة فتتقح لغاية ولذلك لا تستعملها . وفي مصر ترى بعض الالفاظ الايطالية والظاهر ان بعضها سرت اليها بواسطة اللغة التركية مثل كلمة سيفغورتا ( الضمان او التأمين )

واللغة اليونانية الحديثة ادخلت كالايطالية على اللغة التركية العثمانية الفاظاً كثيرة فان ما وصل اليها من النصوص القديمة يبين ان تاريخ الصلة بينهما يرد الى ما قبل القرن الخامس عشر ولفظة « انندي » العربية التي ذكر المسيو جان بيسشاري تاريخها وما تقلب عليها من التبدل الغريب في الصورة والمعنى هي من جملة تلك الالفاظ

وفي لغة عرب المغرب جملة من الالفاظ ومنها ما هو من اصل اسباني وهي مألوفة الاستعمال في مراکش فقد كان للبرتغاليين اثر كبير في هذه البلاد فكيف يتأتى ان لا يتركوا فيها شيئاً من لغتهم واذ كانت المناسبة قوية بين الاسبانية والبرتغالية وكان سكان مراکش يحرفون ما يتبسوته عن الاوربيين من الالفاظ فمن الصعب ان يميز في هذه الاقتباسات ما سرى الى تلك اللغة من اللغة البرتغالية خاصة

ولقد كانت الالفاظ الالمانية التي سرت الى الشرق قليلة جداً وقال بعضهم ان لفظة غروش التركية مأخوذة من غروش الالمانية ولكن بعد البحث الدقيق سيف المعجم

العثماني تبين انه لم يسر الى التركية الا الفاظ جزئية من التعابير الجرمانية . وهنا ننقل الى اللغات الصقلية ( السلافية ) فترى لغات البلقان قد نقلت الى التركية عدداً جزئياً من التعابير ومنها بعض الالفاظ العسكرية وهي من جملة الالفاظ القديمة في تنظيم الجيش العثماني . واللغة الروسية أكثر سرباناً ولكنها مقصورة على اللغات التترية في القرم وقازان وقافقاسيا وآسيا الوسطى فهي لم تعد تلك النجوم بالالفاظ الروسية في البلاد العثمانية الايرانية نادرة للناية . ويجب ان لا يقوتنا ان ما نقترحه اثبات التترية او الروسية هي في الاغلب من اصل فرنسوي او ألماني او ايطالي . وما ذكرناه فيما تقدم عن اللغات الصقلية البلغانية ينطبق ايضاً على اللغة الجربية ولكن اللغة الارناؤدية والارمنية وغيرها من اللهجات المحكية في البلاد التي يتكلم فيها بالتركية لم تؤثر الا قليلاً جداً بهذه اللغة .

وهنا تأتي على تأثير اللغة التركية في فارس حيث تحكم اليوم أسرة قاجار فبعد كثيراً من التعابير والمعاني المختلفة مأخوذة من التركية مثل الاعداد والقباب الشرف واسماء المناصب والمراتب . ومثل ذلك يقال عن اللغة العربية في مصر فلها اخذت اسماء الرتب العسكرية التي دخلت الى البلاد العثمانية بعد الانتكارية ولم يدخل على اسماء الرتب من التعديل الا ما لاغية عنه لتلفظ العربي . وتروى في طرابلس الغرب الخاضعة للحكم العثماني جميع هذه الالفاظ شائعة بالاستعمال وتجد الفاظاً اخرى تركية مستعملة في تونس بل وفي الجزائر حيث ابقت الحكومة الفرنسية رسمياً على بعض الالفاظ التي اخترعها العثمانيون مثل اغا وباش بيدل وخوجه وجاويش وغيرها وما عدا لغة البربر التي سرت بعض الفاظها الى اللغة المغربية .

اما اللغة الهندستانية فلم يدخل منها الا بعض الالفاظ المتأخرة الى الفارسية اما اللغات الشرقية الاخرى فلا تغتر عليها من الالفاظ العربية والفارسية والتركية الا نادراً جداً .

وها نحن نبدأ الآن بالكلام على كل واحدة من اللغات الاسلامية الثلاث فتستفتح بالعربية . فقد رأينا هذه اللغة قبل ولا سيما بعد ظهور الاسلام قد اخذت عن اللغات السامية كالعبرانية ولا سيما الارامية والفارسية واليونانية . وحمل الصليبيون الى العربية بعض الالفاظ الجديدة خلافاً لما يعتقد بعضهم ويظفر بهذه الالفاظ في كلام المؤرخين ولكنها لم تسر الى اللغة المحكية ولا الى اللغة المكتوبة فمن الامثلة العربية

استعمالهم لفظة « ترم » بمعنى المدفوع وجمعهم له على تروم كما في تاريخ ابي شامة ولكنه من الصعب ان ترى هذه اللفظة في كلام آخر . واخذت العربية من الافرنج بعض الالفاظ النصرانية، مدينية كانت اودينية، مثل قومس ( كوت ) وكاغيكوس او كاتوغيكوس ( بطريك ) وبعض التعابير الحربية واللفظ المأطبة التي هي لسان شعب خاضع للحكم المسيحي ومتدين بدينه قد اقتبست بالطبع من اللغات الغربية اموراً كثيرة

ولم يبدأ دخول الالفاظ الاجنبية ولا سيما الافرنسية على العربية الا في اوائل القرن التاسع عشر دخلت بكثرة حتى ان القائلين بتطهير اللغة من الدخيل قد دهشوا لها . ثم ان دخول تعابير افرنسية كثيرة الى اللغة الرسمية اي التركية في سورية ومصر قد نشأ منه اثر في اللغة الوطنية وازدادت صلوات الشرق مع امم الغرب ودخول الافكار الفرنسية وتأييد الحكم الفرنسي على الجزائر وتونس ولا سيما انشاء صحافة عربية حذا فيها اهلاها حذو الصحافة الالمانية كل ذلك مما دعا الى تحول اللغة

وذلك ان الصحافة هي التي احدثت اللغة العربية الحديثة في الجملة وهي تختلف عن لغة القرآن كما تختلف لغة الرومانيك عن اللغة الرومية القديمة هكذا قال الميوسواشتون سروس الملقب بقصلا تو البلجيك في بيروت منذ ثلاث عشرة سنة في مقدمة كتاب مهم للغة وضعه في وصف هذه اللغة الحديثة وعلى ما فيه من الاغلاط والنقص القليل فان هذا الكتاب الذي لم يؤلف على مثاله قد تقع وينفع كثيراً وهو عبارة عن مقدمة عرض فيها المؤلف هذه المسألة على وجه جلي مفصل مشفوعاً بقائمة للصحف التي كانت تنشر اذ ذاك مع تاريخ انشائها وهي قائمة ثينة وان كانت فهارس الرجوع اليها مختصرة وبعض الانموجات من كلامها تأليفاً كانت او ترجمة فأقي فيه اولاً على الجرائد ثم على المواد الرسمية ثم على معجم لغوي مفيد وهو وحده يفسر الكلمات المولدة

ومن رأي المؤلف ان اللغة الحديثة قد نمت في غضون خمسين سنة بسرعة هائلة وهذا النشوء يظهر خاصة من نشوء العربية المحكية او المكتوبة قبل ظهور الجرائد فقد كانوا يكتبون بان يأخذوا عن اللغات الاجنبية بعض المفردات الدخيلة اللازمة لهم من دون ان يعدلوا صورتها التعديل اللازم لها في الفاها . ( للبحث صلة )